ديكارت

Descartes

أبو الفلسفة الحديثة[1]

ترجمته

﴿ اردمن ﴾ ولد « رينيه ديكارت » بمدينة لاهاي في ولاية تورين بفرنسا ، في ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ . وأتم دروسهُ في كلية لافلاش La Flèche ، فقاده درس الشعر والفلسفة والرياضة الى الارتياب ، الذي كان فاشياً يومذاك بين طوائف الباحثين . فعرج عن طلب العلم حيناً . وكان من عادته ان يحلّ قضايا الهندسة بالجبر ، وقضايا الجبر بالهندسة . فتبيَّن ان ضم المنطق اليهما عمل مفيد في كل فروع العرفان ، ودعا ذلك المنهج : استدلالاً : الا أنه غير القياس الجاف الذي لا يضيف الى معارفنا شيئاً

ذرَّ فجر الفلسفة الحديثة « بديكارت » في ١٠ نوفمبر سنة ١٦١٩ بمدينة تورورغ بالمانيا . بشروعه في تأليف كتاب : العالم : Le monde . وكاد ينجزه سنة ١٦٣٣ . ولكن راعه ان البابا حرم « غاليليو » لقوله بدوران الارض . وجانب كبير من كتاب (العالم) يستند الى تلك النظرية ، فرأى اولاً ان يعدم الكتاب دفعاً للبلاء . ومع انه عدل عن هذه الفكرة فانهُ لم يطبع الكتاب . لكنه اصدر عوضاً عنه ، نشرة دورية سنة ١٦٣٨ ، الجزء الاول في الفلسفة . والثاني في الطبيعة والرياضة . وهذا الجزء مأخوذ كلهُ من كتاب : العالم : والثالث في الهندسة . والرابع في الطبيعة . فكان لهذه الكتب أثر كبير في سير العلم . وتلاها كتاب : تأملات فلسفية عرض هذا الكتاب على كثيرين من العلماء قبل طبعه . وطبع في آخره اعتراضاتهم وردوده عليها . وتلاه كتاب : المبادىء سنة ١٦٤٢ ورسالة في انفعالات النفس بعث بها الى الاميرة اليزابت سنة ١٦٤٦ . ثم دعته « كريستينا » ملكة اسوج لزيارتها . فلبَّى الدعوة مترددا ولم يتحمل جسمه برد اسوج القارس . فمات من جراء ذلك سنة ١٦٥٠ في ١١ نوفمبر . وبعد موته صدر كتابان من تأليفه وهما « الانسان » و « تكوين الجنين » وطبعت كل مؤلفاته باللاتينية في تسعة مجلدات

مشاهيره

﴿ لوس ﴾ لا مشاحة في ان ديكارت ابو الفلسفة الحديثة . ولا يزال التفكير في اوربا

---

(١) هذا جانب من فصل ممتع في كتاب « الفلسفة في كل العصور » الذي وضعه المؤلف الفاضل حنا خباز وقدمه للطبع وقد جرى في وضعه على خطة طريفة ذلك انه جاء طائفة من أشهر الكتب التي وضعها مؤرخو الفلسفة واختار منها خير ما قيل في مختلف الفلاسفة مما يظهر آراءهم وأسند كل قول الى صاحبه حتى ما نرى في هذا المقال

نسجاً على منواله . وبه تقرّر وجود الفلسفة كأمرٍ لا نزاع فيه . قال في مقدمة كتاب «تأملات فلسفية» الذي قدمه للسوربون : — «لقد فكرت في قضيتين : وجود الله ، وطبيعة النفس . وهما أهم ما يجب حله بالفلسفة من القضايا ، لأنه مع اثباتنا بهما لا نقدر ان نقنع اي احد بلزوم الديانة والفضيلة ، مالم نبرهن اولاً على صحة هاتين القضيتين» . وهذا الكلام جديد الصيغة . يدلنا دلالة واضحة على ان الفلسفة حصلت على استقلالها التام عن علم اللاهوت . ولكن ما هو اتجاهها ؟ الجواب . ان اتجاه الفلسفة احد أمرين . اما ان تنهج منهج فلسفة الاقدمين ، او ان تبتكر منهاجاً جديداً . فنهج ديكارت المنهج الثاني . الارتياب فاش ، والنفس البشرية في حاجة الى محك به تميز الحقيقة . ذلك ما شعر بالحاجة اليه الابيقوريون والرواقيون وفلاسفة الاكادميا الافلاطونية . وبعدهم عرج الفلاسفة الاسكندريون الى مملكة الايمان ، هرباً من الحيرة . فمسألة محك الحقيقة هي مسألة الفلسفة الكبرى . لم يجد «ديكارت» حلاً لهذه المسألة في أساطين عصره . فلك الشك مشاعره . وعاد لا يثق بمعارفه ، ولا ببيّنات حواسّه . فعزم على نزعها كلها من عقله ، بحيث يصبح عقله : صفحة بيضاء : ثم يشرع في بناء صرح المعرفة فيه من جديد ، بفحص مقدمات كل نتيجة فحصاً مدققاً . فلا يقبل إلا ما تبرهن على صحته برهاناً لا تردُّد فيه

﴿ روجرس ﴾ قال : مررت بالرياضة لان بيناتها راهنة على اني لم اكن قد رأيت لها نفعاً . فظننت ان كل ما فيها من فائدة انما هو استخدامها في فنون الميكانيكا . وعجبت من انه لم يبنَ على اسسها المتين بناء شاهق . كما دهشت لصروح باذخة قد شيدت على الرمال . انني اشدُّ احتراماً للاهوت من أي احد للفوز بدخول السماء . لكنني علمت ان أبوابها مفتوحة للحكيم وللجاهل سواسية . وان قضاياها فوق مستوى العقل الانساني . لذلك لم اجنح الى اخضاع قضايا اللاهوت السامية لفحص العقل . ولو ان ذلك متاح لنا لتعذّر اتمامه دون العون الالهي . وليس لي ما أقوله في الفلسفة غير ما يلي : لقد تقبلها اكبر العقول في كل العصور . ومع ذلك فليس فيها ما لا نزاع فيه . فهي غير حرة من دواعي الشك . ولم احلم بفوز يفوق ما حصل عليه سائر الآخرين . وتفكرت في تضارب الآراء مع وحدة الحقيقة فملت الى الريب في الآراء المتضاربة كافة . وترءى لي ان لا علم يقين يُبنى على اسسٍ واهنة ، كقواعد التنجيم او عمليات الكيمياء القديمة ، وادعاءات المشعوذين . فرأيت ان أقطع علاقتي باساتذتي . وان لا أختار شيئاً من المعارف ، الا ما حصلته بذاتي لذاتي . فقضيت زهرة شبابي في الاسفار ، اتعهد العالم ، واشهد الجيوش ، واختلط بالناس في مختلف الاحوال ، اجمع الاختبارات ، محققاً في كل ما أراه ، مفكراً في الحوادث ، لاستخراج ما يمكن استخراجه من الفوائد . لانه ما دام ديدني اقتفاء آثار الغير ، وانتهاج مناهجهم ، فلا بد ان استخرج ما

اذخره في عقلي . ورأيت ان وجوه الاختلاف وافرة هنا كما هي في المذاهب الفلسفية . ورأيت الناس يتهافتون على سخافات كثيرة . وحررت نفسي من خطيئات كثيرة كانت تحجب النور عن بصيرتي ، وتصرفني عن سماع وحي النفس . وبعد ما قضيت سنين في درس العالم ، جاهداً في جمع الاختبارات ، وطنت العزيمة ذات يوم ، على درس باطني . وان اقف كل قوى عقلي على اختيار المنهج الذي اتبعه . فصادفت هذه الخطة فوزاً هو اعظم مما لو لم اهجر كتبي وبلدي . وكان ذلك في مدينة نورنبرغ ، في خلال الحرب الناشبة يومذاك . وانا عائد من حفلة تتويج الامبراطور الى المعسكر . فدفعني البرد القارس الى بيت منعزل قصد التدفئة . لم يكن في ذلك البيت من اعاشره ، ولا ما يثير الاهواء التي تتنازع تفكيري . فقضيت النهار بطوله في غرفة يدفئها الموقد . وكانت لي فرصة سانحة لمحادثة النفس

واول خاطر خطر لي هو : ان العمل الذي يشترك فيه الكثيرون اقل اتقاناً من عمل يتمه الفرد الواحد من الناس : والكتب العلمية ثمرة جهود الكثيرين ، وفيها حقائق غير قاطعة ، ونحن اطفال قبل ان نكون رجالاً ، فنستند الى الكتب والمعلمين . فافكارنا غير حرة واحكامنا غير ذاتية . بخلاف ما لو اشتغلنا بالتفكير في لعومة الاظفار . فلم ار خيراً من اطراح كل ما عندي من المعلومات ، ونزع كل حكم من عقلي . وان لا ابني عليه تفكيراً . فسننت لنفسي قوانين . وهي

﴿ روجرس وتر ﴾ القانون الاول : ان لا اقبل شيئاً كحقيقة الا اذا وضح انه كذلك

الثاني : ان اقسم كل معضلة الى اقصى ما يمكن من الاقسام

الثالث : ان ابدأ بالاسهل والاقرب الى الفهم ، واتقدم منه الى الاصعب والابعد

الرابع : ان اضبط الاحصاء حذراً من ضياع شيء من الجزئيات التي لدي . معارفنا مشوشة مبهمة ، لاننا نقبل اشياء كثيرة في وقت واحد ، والمكثار غير مجيد ولا مستوضح . لان عقله مشوش مضطرب . فلنختر الاوليات التي لا تفتقر الى البرهان ، وهي التصورات الغريزية . لانها ليست نتيجة الاختبار ، وهي اساس كل حكم ، وفيها جرثومة الحقيقة التي غرستها الطبيعة في نفوسنا . يضاف اليها الاستدلال ، وهو فعل به نتوصل الى نتائج صحيحة . من مقدمتين لنا نتيجة صحيحة . فالرياضة اصح العلوم البشرية . وفيها اوليات يبنى عليها

﴿ روجرس ﴾ فشرع « ديكارت » يفكر بذاته لذاته ، وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، بانياً على الرياضة . فجاء منهجه بما اراده منه من الوضوح والبيان ، مع متانة البناء ، وسديد الحجة . فطبق في تفكيره قوانين الرياضة ، فكان عمله منتجاً . ولما كانت كل فروع العلم مستمدة من الفلسفة الاولى رمى الى تطبيق منهجه على تلك الفروع

الوجود والفكر

﴿ تر ﴾ وانتهى الامر بتأليف كتاب « المنهج » سنة ١٦٣٧ وكتاب « تأملات » سنة

١٦٤١ محاولاً بهما اكتشاف الحقيقة التي لا تدحر ، التي ندركها بالبديهة الجليّة والحقيقة الانسانية التي بنى عليها كل شيء هي «النفة بالادراك»

﴿روجرس﴾ قال : — اما كل ما تعلمتهُ فمن الحواس وبالحواس . على اني وجدت الحواس خادعة احياناً ، ومن الفطنة عدم الثقة بالخدع . على ان الحواس ، وان خدعتنا في ما لا يحصره حكمها ، فهي الدليل الامين في كثير من الحوادث التي لا يدانيها ريب . مثلاً : انا الآن امام الموقد . لابسٌ ردائي ، واقبض على هذه الورقة بيدي . فكيف يمكنني ان انكر هاتين اليدين ؟ اللهمّ الاّ اذا كنت كاحد المجانين الذين ليس لاوهامهم وزن . او اني ارى ما اراه حالماً . وان ما انا فيهِ ليس حقيقة بل هو نقل . وان ليست يداي ، ولا عيناي ولا رأسي هي في النسبة التي اعرفها . ولكن لا مندوحة عن التسليم بان اشياء الحلم ظلال حقائق اليقظة . وان ما نراه في حلمنا هو صورة ما يحدث لنا في يقظتنا . فهذه الاشياء ، من عيون وايدٍ ليست تخيلية ، بل كائنة حقيقة . على الاقل ان العنصر الذي منهُ تكونت هو حقيقي ، هيولى ذو امتداد . فالاجسام ذوات ابعاد وحجوم وعدد . فكيف ارتاب في ان ٢ + ٣ = ٥ ؟

مرّ بي زمن طويل اومن بوجود الله ، وانهُ قادر على كل شيء ، وانهُ خلقني . فكيف اتصوّر انهُ لم يخلق السموات والارض ، والاجسام ذات الامتداد ، والاشكال والصفات ! اني اشعر بوجود هذه الاشياء ، فكيف اعرف اني لست مخدوعاً في شعوري ؟ ان الله لا يخدعني ، ولكن قد يكون الخادع شيئاً آخر شرير ، فلنفرض (والفرض جائز) ان السماء والارض والهواء والاشكال والالوان والاصوات ، وكل الاشياء الخارجية ، ليست الاّ خداعاً وتصورات فارغة ، وان ليس لي يدان ، ولا رجلان ، ولا عينان ولا ولا ولا . واني لا اتمكن من معرفة شيء فالنتيجة اللازمة عن ذلك هي التوقف عن كل حكم . فاقول لذاتي : ان كل ما اراه واسمعهُ واذوقه والمسه واشمّه وهمٌ في وهم . وان لا شيء موجود . وان ذاكرتي مشحونة بالاوهام . وان لا حواسّ لي . وان الجسم والحركة والصوت وكل الظاهرات ، هي خيالات ابتدعها عقلي . فماذا بقي مما هو حقيقة ؟ لم يبقَ الاّ الحكم : ان لا شيء موجود

افلست انا شيئاً ؟ ولكنني انكرت ان لي جسماً او اعضاء . وان لا سماء ولا ارض ولا هواء الخ . فهل انا غير موجود ؟ كلاّ لان لي فكراً بهِ حكمت ان لا شيء موجود : فالحاكم موجود . واذا زال هو زلت انا . فانا ما يفكر . اي اني عقل فهم او فكر . فانا موجود ، ولكن ما انا ؟ قلت اني شيء يفكر ، فما بعد ذلك ؟ اني استثيرُ خيالي لارى هل انا اكثر من ذلك . لست انا هذه المجموعة من الاعضاء التي ادعوها جسدي . ولست بخاراً ينتشر في جو هذه الغرفة ، ولست ريحاً ، ولا شيئاً آخر من كل ما اقدر ان اتصورهُ . مع ذلك لا ازال اوقن اني شيء . فما هو ذلك الشيء الذي يفكر ؟ هو شيء يرتاب ويفهم ويدرك ويجزم ويشعر .

فليس هو شيئاً زهيداً وفيه كل هذه الصفات ؟ ألست انا الذي ارتاب الآن بوجود كل شيء ؟ اولست انا الذي فهم وجزم بوجوده ونفى كل ما سواه ؟ انا الذي لا يريد ان ينخدع . انا الذي يتصور اشياء كثيرة ، ويشعر بأشياء كثيرة . افليس يقيناً أني موجود ولو اني في حلم ؟ ثم اني انا الكائن الذي يشعر ، والذي يؤكد وجود بعض الاشياء بواسطة أعضاء جسده . فأرى النور ، وأسمع الصوت ، وأشم الرائحة ، وألمس المادة . ولكني قلت ان هذه الاشياء باطلة ، واني نائم . فلنسلم بذلك . فأقول ، على الاقل ، انهُ يخيَّل اليَّ اني ارى نوراً وأسمع صوتاً وألمس مادة وأشم رائحة ، وأدعو ما فيَّ شعوراً ، روحيًّا . وليس ذلك الاَّ فكراً . من ثمَّ بدأت اعرف ما انا

فأساس فلسفة ديكارت ، التي توفر له اثبات وجود الذات وجوداً لا ريب فيه ، هو الشعور . يتجلى ذلك الشعور حتى في فعل الشك . والذات هي التي تشعر . ولكن ما هي؟ قال تعوَّدت ان احسب ذاتي مؤلفة من نفس وجسد . فالجسد هو هذه الكتلة المشكلة بالشكل الخاص . ولكن لا شيء من اوصاف الجسد يصدق على النفس ، التي هي بالضرورة فكرية. فهل من صفة للنفس ؟ نعم ، وهي الفكر . فما دمت افكر فأنا موجود Cogito Ergo Sum

وبلي ذلك كلام ضافر في «الله» و «المادة» و «العقل» و «علاقة المادة بالعقل والعواطف» نعرج عنها الى نظرية اردمن في ديكارت. واردمن اهم مؤرخي الفلسفة الذين اعتمدتهم في تأليفي

﴿ اردمن ﴾ : وقعت تعاليم « مونتان » الارتيابية بفرنسا كالبزور . وكانت ثمرتها في النفوس المتدينة صفة ارتياب (كرسين) ، ذات ميل الى الجزم في صحة قضايا اللاهوت . وانتشر الارتياب، فحمل ذلك «مرسين» على الندب والرثاء. فاذا فرضنا ان «ديكارت» اختبر وطأة ارتياب كهذا، فحمله ذلك على طلاب المعرفة، كانت محاولته التخلص من هذا الارتياب امراً معقولاً

ففي كتاب «المنهج» وكتاب «تأملات» وكتاب «المبادىء» سلسلة من التعاليل باللغة المألوفة . كقوله (الحس خادع والعقل كذلك) فلا نقدر ان نسلم للعقل لانهُ عرضة للخطأ. فانظر كيف يتطرق الشك الى اليقين . قال «سانتيه» . كلما زدت تفكيراً زدت شكًّا . فاجابهُ «ديكارت». كلما زدت تفكيراً زدت يقيناً بأني موجود . فالادراك هو الذي يشك . فالشك دليل على وجود الشاك (المسند اليه) دلالة الاثر على المؤثر ، دلالة الفعل على الفاعل

ليس في طبيعيات «ديكارت» تصور الغاية . لان ذلك الفكر (الغائي) غريب عن الرياضة وقد اشار «ارسطوطاليس» الى انتفائه من تعليم فيثاغورس (لان تفكير «فيثاغورس» كان رياضيًّا كتفكير «ديكارت») ولا ينكر «ديكارت» ان الله يعرف غايات العالم الطبيعي . لكنهُ يرى ان رغبتنا في معرفتها وقاحة . فقولنا — الانسان غاية الكون — كبرياء وسلف منا. فكل ما يساور ادراك الامتداد يلزم الاجساد طبعاً . وما كان ضد ذلك يكر . فليس في العالم

الطبيعي جواهر ولا حدود . فتنضم فسحات الوجود المتحرك الى ادراك الامتداد . ولكي تفهم هذه الامكانات يلزم تدخل قوة اخرى، هي الكائن، اساس اقصى امتداد — هي او هو الله

يرد ديكارت كل حوادث المادة الى الحركة . فلسفة الطبيعة كلها ميكانيكا ، وهي بالنتيجة رياضية . ولما كان الله علة كل حركة فهو لا متحرك (هذه فكرة ارسطوطاليس) فالأثر من طبع العلة . ومجموع نتيجة البراهين هو : —

١ً : ان مجموع الحركة واحد بذاته

٢ً : يظل كل جسم في الحالة التي هو فيها من حركة او سكون

٣ً : يظل كل متحرك سائراً في خط مستقيم ما لم يعترضه عامل خارجي

٤ً : اذا صدم جسم متحرك جسماً آخر ساكناً نقل اليه الحركة

تدعى المادة عنصر النار الاول (نظرية هيرقليطس) ومنها تكونت الشمس والنجوم الثوابت . وباقي الهيولى ماء وتراب ، بحسب سهولة حركتها او صعوبتها ؛ وبينهما الهواء الكروي . ومنه تكونت السماء (ربما اراد به الجو) فالنار ظاهرة تموُّج الذرات . وذاك التموُّج علة تكوّن الكون . اما الحرارة فمعلولة حركة العنصر الاول . ويؤثر تنوُّع الحرارة فتحوّل بعض الذرات عن الخط المستقيم . واذا انسحب جسم (من النار) تواردت الاجسام الاخر الى حيزه . فتنتج من ذلك حركة دورية . بهذا يعلل سقوط الاجسام على سطح الارض ودوران السيارات حول الشمس (يقارب ذلك رأي «اينشتين» في تحدُّب الفضاء)

الدم روح الحيوان ، وفيه الحياة . وقد رحب « ديكارت» باكتشاف «هارفي» للدورة الدموية . لكنهُ خالفهُ في ان القلب علة النبض . ومركز الانفعال العلة الضوئية في الدماغ . وهي منشأ كل حركات الجسم . تماثل فلسفة العقل فلسفة الجسم . الله عقل كبير . والعقل الله صغير . والتفكير من خصائص العقل كالنور في المصباح . كل اعمال العقل تصورات . وهي انواع . فمنها تصورات مطابقة ، ومنها تصورات غير مطابقة ، مخالفة ، ناقصة ، وهكذا

من هنا التصورات الغريزية — البديهية

الله كامل الارادة . فلا يقرر ما كان ، بل يكون ما قرَّر . ويكون الشيء صالحاً لان الله ارادهُ . ويكون شريراً لان الله لا يريده . «فديكارت» «صكوني» (اي من رأي « دُنْ سكوت» من كبار المدرسيين) في الله ، توماوي (اي من رأي «القديس توما الاكويني») في الانسان

تقود فلسفة «ديكارت» الى الثنائية (وجود اصلين للكون هما المادة والروح) يستحيل التفاعل بينهما . ولكن تصور وجود الله وضع الحد لهذه الثنائية . فزال الارتياب ، وصار ممكناً ان يعلن العالم الخارجي للعقل . ونقطة فلسفة «ديكارت» : الذات المرتابة والالوهية

وبدون الالوهية يتعذر التوفيق بين المادة والعقل